الفصل الثانى

(موضوع سورة القصص)

obeikandl.com

(موضوع سورة القصص)

ويحتوى على خمسة مباحث

المبحث الأول : تسلية النبي – ﷺ – بنصر الله تعالى وتمكينه للمستضعفين .

المبحث الثاني : موسى– عليه السلام –

أولاً : موسى في بيت فرعون .

ثانياً : مقتل القبطى .

ثالثاً : الخروج من مصر، وزواجه ، وانقضاء الأجل .

رابعاً : البشارة بالرسالة ، وهلاك فرعون .

المبحث الثالث : تذكرة المعاندين بالآيات الباهرة والنعم المحيطة وتحذيرهم مما وقع لأسلافهم .

المبحث الرابع : العبرة وهلاك فرعون .

المبحث الخامس : العاقبة .

المبحث الأول

تسلية النبي ﷺ بنصر الله تعالى وتمكينه للمستضعفين

obeikandi.com

لما كان الإيذاء في مكة على أشده ، ولما كانت هذه السورة الكريمة في الجملة مكية ، نراها **قد** بدأت بالتسلية للنبي ﷺ والتسرية عنه من جراء ما يلاقيه من أذى قومه ليل نهار ، تصديقاً **لقوله تعـــــالى** : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (**هود ١٢٠**) .

وقولـه تعـالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ **(يوسف ١١١)** .

وهـذا المعنـى قررتـه السـورة الكريمـة فـي أولهـا فـي قولـه تعـالى : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ **(القصص ٢) ، أي : المبين لكل أمر يحتاج إليه العباد من معرفة ربهم ، ومعرفة حقوقه ، ومعرفة أوليائه وأعدائه ، ومعرفة وقائعه وأيامه ، ومعرفة ثواب الأعمال ، وجزاء العمال ، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين ، ومن جملة ما أبان ، قصة موسى وفرعون ، فإنه أبداها وأعادها في عدة مواضع ، وبسط جانب منها في هذه السورة ، وذلك لتسلية النبي – ﷺ – ، ولإعلامه – ﷺ – أن أمته أشبه الأمم ببني إسرائيل ، لذلك كان الاعتبار بقصصهم أنجع من غيرهم ، فقد صح عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : " ليأتينَّ علَى أمَّتي كما أتى علَى بني إسرائيلَ حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ حتَّى إن كانَ منهُم مَن أتى أُمَّهُ علانيَةً لَكانَ في أمَّتي مَن يصنعُ ذلِكَ وإنَّ بني إسرائيلَ تفرَّقَت علَى ثِنتينِ وسبعينَ ملَّةً وتفترِقُ أمَّتي علَى ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحدةً قالوا مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ ؟ ! ! قالَ : ما أنا علَيهِ وأصحابي. " (١)**

قوله تعالى : ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ **(القصص ٣)**

أي : نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون على ما كان عليه كأنك تشاهده ، وذلك لتقيس ما أنت كائن فيه على ما كان ، فإن الأمور اشتباه ، فإن قريش مهما بلغوا من قوة وعناد ، لن يبلغوا معشار هذه الجبار العنيد ، ومع ذلك فإن الله غالب على أمره ، وخصّ المولى ـ جل وعلا ـ هذه الثلة من المؤمنين بهذا النبأ العجيب ؛ لأن معهم من الإيمان و التقوى ما يقبلون بهما هذا الخبر ويهتدون إليه ويتدبرونه ، وأما من عداهم بمفهوم الآية الكريمة فلا يستفيدون منه ، بل قلوبهم مُنكِرة ، مصروفة عن تدبر مواقع العبر بما انطوت عليه من ران الكفر وظلمة الشرك .

---

(١) الألبانى – تخريج مشكاة المصابيح – (١٦٩) وهو قوى بغيره .

فللمؤمنين أن يحتجوا على قريش بأن قرابتهم من رسول الله ﷺ مع كفرهم لن تنفعهم ، كما لم تنفع قارون قرابته من موسى –عليه السلام– ، وأن العلو في الأرض والتجبر والتباهي بالمال من سيرة فرعون وقارون ، فهل من معتبر ؟!

قولـــه تعـــالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ **(القصص ٤)**

يذكر المولى عز وجل في هذه الآية طَرَفاً من تجبر فرعون – قبحه الله – في ملكه وسلطانه ، وجنوده وجبروته ، فصار من أهل العلو والبغي فيها ، فمن ذلك أنه سام بني إسرائيل سوء العذاب ، فجعل أهلها طوائف متفرقة ، يستذلهم حسب هواه ، بعدما كانوا أشراف القوم ، وبلغ به الحال أنه ذبح الأولاد خوفاً من كثرتهم فيغمرونه في بلاده (١) ، ويصير لهم الملك ، فذبح واستحيا ، وعاث في الأرض فساداً ولكن الحذر لا ينجى من القدر ، وإن الله – عز وجل – إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ، ولا رادّ لحكمه ، وشاءت إرادة العلى القدير أن يتربى موسى –عليه السلام – على عينه في بيت فرعون ، وأن يكون تدبير فرعون تدميره ، وهذا هو موضوع المبحث الثاني .

---

(١) أبو السعود – إرشاد العقل السليم – دار إحياء التراث العربى . بيروت . د. ت . (٧ / ٢) –
وانظر : سيد قطب – في ظلال القرآن – دار الشروق . بيروت و القاهرة . ط ١٧ : ١٤١٢ هـ . ص (٥ / ٢٦٧٤) .

obeikandl.com

المبحث الثاني : موسى – عليه السلام –

أولاً :

موسى – عليه السلام – في بيت فرعون .

بعد أن ذكر الله – عز وجل – طَرَفاً من كفر فرعون وطغيانه ، ثنىّ بالبشارة بنصره وسط هذا الجو الملبّد بغيوم الظلم والقهر ، وكأن الله – عز وجل – يذكّر المؤمنين عامة بقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ (الشرح ٥-٦) ، فقرر المولى – عز وجل – أن سنته في التمكين للمؤمنين ، مهما طال الباطل وانتفش فهو زاهق ، وأن الحق مهما ضعف وانزوى فهو غالب، فقال

– عز وجل – : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴾ **(القصص ٥-٦)**

فالمولى – جل وعلا – إذا أراد أمراً سهّل أسبابه ، فإنه قدّر وأجرى الأسباب التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه ، فتضافرت الأقدار العجيبة والأسباب الغريبة في الوصول للمقصود ، الذي قدره المولى – عز وجل – ، فكان أولها **: أنه قدّر بقدره الغالب أن يوجد موسى –عليه السلام – في وقت المخافة العظيمة ، في العام الذي يقتّل فيه الأولاد ، ومن تدبير الله –عز وجل – لأم موسى أنه أوحى إليها وحى إلهام بأن ترضعه ، وإذا خافت عليه ألقته في تابوته في الماء ، ونهاها عن الخوف والحزن ، وبشرها ببشارتين ، بأنه مردودٌ إليها ، وبأنه سيكون نبيًّا ، كل ذلك ليربط على قلبها ولتكون من المؤمنين ، حتى تحتمل هذه المفارقات العجيبة .**

وثانيها **: أن الذي يلتقطه ليربَّيه ، ويعتني به ، ويبذل الغالي والنفيس في البحث عمن يكفله هو الذي يذبح الأبناء ويستحيى النساء ، وذلك مصداق قوله تعالى :** ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ **(طه ٣٩)**

ومن جميل صنع الله – جل وعلا – لموسى – عليه السلام – ، ومن لطيف قَدَرِه به ، أن قَيَّضَ لموسى امرأة فرعون تحنو عليه ، وتعرض على فرعون أن يكون قراراً لعينه كما صار لها ، ولكن البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمنطق ، فقال لها : أمّا لك فنعم ، وأمّا لى فلا ، [1] **فكان كذلك ، وهداها**

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – (٣٩٤/٣).

الله بسببه ، وأهلكه الله على يديه ، فطفقت تخاصم عنه ، وتذب دونه ، وهذا من عناية الله بنبيّه موسى بن عمران – عليه السلام – .

وأما عن عناية الله –عز وجل– بأم موسى ، فربط على قلبها لتكون من المؤمنين ، وإلا فقد كانت قاب قوسين أو أدنى من الإبداء به لشدة وجدها وحزنها وأسفها عليه ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما :

أي تصيح عنه إلقائه : واابناه ، قال السُّدَّى : كادت تقول لما حُمِلَتْ لإرضاعه وحضانته : هو ابني ، وقال ابن مسعود : كادت تقول : أنا أمه ، وقال الفراء : إن كادت لتبدى باسمه لضيق صدرها .[1]

وثالث هذه المفارقات العجيبة : أن الله ـ عز وجل ـ حرّم عليه المراضع كلها تحريماً قدرياً ، وذلك لكرامته عند الله ، وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله – سبحانه وتعالى– جعل ذلك سبباً لرجوعه إلى أمه لترضعه وهي آمنة ، فاستحالت محنتها العظيمة منحةً جليلةً ، فقدّر الله – عز وجل – لها أن ترضع ابنها وتأخذ أجراً وهي آمنة مطمئنة ، فقد أُجريَتْ لها النفقات و الصلات و الكسوة ، وقد جاء في الحديث : " مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير ، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها " [2] ،

وبذلك نعلم أنه ليس بين الشدة والفرج إلا القليل ، وهذا مصداق لقوله تعالى :﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ (الشرح ٥–٦)

وكما قال النبي – ﷺ– : " واعلم أن النصرمع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً " [3]

---

(١) القرطبي – الجامع لأحكام القرآن . (١٣ / ٢٠٦) .

(٢) ابن كثير – نفسه (٣ / ٣٩٥) .

(٣) أخرجه الترمذى (٤ / ٢٥١٦) ، وصححه الألبانى .

ثانياً : مقتل القبطي

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ **(القصص /١٤)**

وحتى قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ **(القصص /٢٠)**

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ **(القصص /١٤)**

أي : لما بلغ أشده من القوة والعقل واللب ، وذلك نحو أربعين سنةٍ في الغالب ، و"وَٱسۡتَوَىٰٓ" **فكملت فيه تلك الأمور** "ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا" **أي : حكماً يعرف به الأحكام الشرعية ، ويحكم به بين الناس ، وعلماً كثيراً ، وهذا هو جزاء الله – عز وجل – لعباده المحسنين لخلق الله ، وفي الآية دليل على كمال إحسان موسى – عليه السلام –** .[1]

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ **(القصص /١٥)**

أي : دخل المدينة في وقت القائلة ، وقيل بين المغرب والعشاء [2] ، "فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ" **أي : يتخاصمان ويتضاربان ،** " هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ" **أي : من بني إسرائيل ،** " وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ" **أي : من القبط ،** " فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ" **أي : طعنه بجمع كفه ، وقاله مُجاهد** [3] **، فقضى عليه ، وعندئذ قال موسى عليه السلام :** " قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ" **وعدّ هذا ذنباً وتاب إلى الله منه .**

الأقوال في تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ **(القصص /١٧)**

---

(١) الشيخ السعدي – تفسير السعدي – ص (٦٢٨).

(٢) ابن كثير – تفسير ابن كثير – (٣٩٥/٣) ، وانظر : البيضاوي – تفسير البيضاوي . تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلى . دار إحياء التراث . بيروت . ١٤١٨ هـ . ص (٤ /١٧٣) .

(٣) ابن كثير– نفسه (٣٩٥/٣) .

١) قيل : أراد إنى وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين ، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمناً .

٢) قيل : إن ذلك الإسرائيلي كان كافراً ، إنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ، ولم يرد الموافقة في الدين ، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافراً على كافرٍ ، فقال : لا أكون بعدها ظهيراً للكافرين .

٣) وقيل هذا ليس خبراً ، بل هو دعاء ، أي : فلا أكون بعد هذا ظهيراً ، أي : فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين .

٤) واختار الإمام القرطبي أنه خبر لا دعاء ، وذكر عن ابن عباس – رضي الله عنهما – لم يستثنِ فابتلى به مرة أخرى ، يعنى لم يقل : فلن أكون إن شاء الله .[١]

قوله تعالى : ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ ﴾ **(القصص /١٨)**

قال القرطبي– رحمه الله – في الجامع لأحكام القرآن :

قد تقدم في " طه " وغيرها أن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – عليهم يخافون ، ردًّا على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافى المعرفة بالله ،' ولا التوكل عليه ، فقيل :

١) أصبح خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ بها .

٢) وقيل : خائفاً من قومه أن يسلموه .

٣) وقيل : خائفاً من الله تعالى .[٢]

ذكر الأقوال في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴾ **(القصص /١٨)**

١) قيل في معنى " غوى " : أي : مضلّ بيّن الضلالة قتلتُ بسببك أمس رجلاً ، وتدعوني اليوم الآخر ، وعليه فالكلام للإسرائيلي .

٢) وقيل : الغويّ بمعنى الغاوى ، أي إنك لغويّ في قتال من لا تطيق دفع شره عنك ، وكذلك الكلام هنا للإسرائيلي .

---

(١) الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – (٢١١/١٣) بتصرف .

. وانظر : البيضاوي – تفسير البيضاوي – (٤/ ١٧٤) . وانظر : الرازى . مفاتيح الغيب . (٢٤ / ٥٨٦) .

(٢) القرطبي – نفسه – (٢١١/١٣)

openkanal.com

٣) وقال الحسن : إنما قال للقبطي : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ في استسخار هذا الإسرائيلي ، وهمّ أن يبطش به ، ويؤكد هذا القول تفسير قوله : ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي : لن أترك نصرة المسلمين كما مرّ بنا .

<u>ذكر الأقوال في قوله :</u> ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ (القصص: ١٩)

١) قال ابن جرير : أراد موسى أن يبطش بالقبطيّ ، فتوهّم الإسرائيلي أنه يريده ، لأنه أغلظ له في القول ، فقال : " أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ " سمع القبطي كلامه فأفشاه .

٢) وقيل : أراد أن يبطش الإسرائيلي بالقبطي ، فنهاه موسى – عليه السلام – فخاف منه ، فقال : " أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ " (١)

<u>قوله تعالى</u> : ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ **(القصص /١٩)**

قال له ذلك ، لأن من أعظم آثار التجبر في الأرض قتل النفس بغير الحق ، وإلا فلو أردت الإصلاح ، لحلت بيني وبينه من غير قتل ، فانكفّ موسى – عليه السلام – عن قتله ، وارعوى لوعظه وزجره ، ولكن وقع المحظور فشاع الخبر بما يجري من موسى في هاتين القضيتين ، حتى تراود ملأ فرعون ، وفرعون على قتله ، فقيض له ذلك الرجل الناصح ، فبادر إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم ، فامتثل – صلى الله عليه وسلم– نصحه ، "فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ " **أن يوقع به القتل ، ودعا الله فقال :** " رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " **فإنه قد تاب من ذنبه الذي فعله غضباً للحق ، من غير قصدٍ منه للقتل ،** "وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ " **قال متضرعاً لربه ومولاه –عز وجل–** " عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ " **فهداه الله ونجاه ، ووصل إلى مدين آمناً مطمئناً ، وبذلك نكون قد وصلنا إلى مرحلة جديدة ، ألا وهي مرحلة دخول مدين و الزواج من بنت صالح مدين ، وهذه هي المرحلة الثالثة في هذا المبحث**

---

(١) القرطبي – السابق – (٢١٣/١٣) بتصرف

obeikandl.com

ثالثاً :

الخروج من مصر ، وزواجه ، وانقضاء الأجل :

وبوصول نبي الله موسى – عليه السلام – إلى مدين نصل إلى مرحلة جديدة من مراحل حياته – ﷺ – ، فهذه المرحلة تعد بمثابة التقاط الأنفاس ، واستجماع القوى ، فهي بمثابة التقدمة بين يدي البعثة والبشارة بالنبوة فلما توجه – ﷺ – تلقاء مدين سأل الله – جلّ وعلا – وهو في منتهى الضُّعفة أن يهديه الطريق السواء المختصر ، فاستجاب له ربه . عز وجل – فهداه سواء السبيل ، وتأتى العناية الإلهية ، فيقدر الله . عز وجل – له أن يرى امرأتين ضعيفتين تذودان وتكفكفان ، خشية الاختلاط بالرعاء ، فكانتا له بمثابة الخيط الموصِّل لبر الأمان ، وذلك لأنه التقى بعدُ بصالح مدين .

قال ابن عاشور : ومعنى ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ أنه سقى ما جئن ليسقينه لأجلهما ، فاللام للأَجْل ، أيْ : لا يدفعه لذلك إلا هما ، أي : رأفةً بهما وغوثاً لهما ، وذلك من قوة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء عند الوصول [1].

فلما رآهما – ﷺ – رقّ لهما ، فسأل عن الخطب ، ولم يزد ، فأجابتا و اعتذرتا لأبيهما ، فقام لتوه فسقى لهما ، ثم انصرف عنهما إلى الظل ، لأن مثله لا يفعل هذا الفعل إلا لله ، ثم للمروءة والنجدة ، في بلد قلّ فيها مثل هذا الخلق ، فموسى – عليه الصلاة والسلام – لا يخضع ولا يخشع إلا لمولاه ، لذلك نجده يتململ ويتملق مولاه – عز وجل – فيقول : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص /٢٤)

فلم ينتهِ – ﷺ – حتى جاءه الفرج من عنده ، وهذا جزاء الأدب مع الله تعالى ، فموسى –عليه السلام – سأل الله بحاله ، فكان أبلغ من مقاله .

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ (القصص /٢٥)

---

(١) انظر : ابن عاشور – التحرير و التنوير – (٢٠ / ١٠١).

obeikandi.com

وهذا يدل على كرم عنصرها ، وخلقها الحسن ، فالحياء خلق فاضل ، وأفضل ما يكون وأرجى عند النساء ، ودلّ حياؤها أيضاً على أن موسى – عليه السلام – لم يكن فيما فعله من السقى لهما بمنزلة الأجير و الخادم الذي لا يستحى منه في الغالب . [1]

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ (القصص /٢٥)

أي : لا لِيَمُنّ عليك ، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان ، وإنما قصده أن يجازيك ويكافئك على إحسانك لنا ابتداءً ، فأجابها موسى – عليه السلام – وقبل الدعوة ، فلما جاءه وقصّ عليه القصص من ابتداء مهربه إلى أن وصل إليه ، قال له مسكّناً روعه ، جابراً قلبه : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص /٢٥)

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (القصص /٢٦)

قالت ذلك لأنه جمع بين القوة والأمانة ، وخير أجير استؤجر من جمعهما ، أي : القوة والقدرة على ما استؤجر عليه ، والأمانة فيه وعدم الخيانة ، فالخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما ، ولا تمام للعمل إلا باجتماعهما ، إنما قالت ما قالته بناء على ما شاهدته من قوته عند السقي ، ومن أمانته عندما صاحبها للوصول إلى أبيها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القصص /٢٧)

طلب صاحب مدين من نبي الله موسى – عليه السلام – أن يصير أجيراً عنده ثماني حجج ، فإن أتم عشراً فتبرعٌ منه ، لا شيءٌ واجب عليه،ولذلك قال له: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ (القصص /٢٧) بأن أكلفك أعمالاً شاقة ، أو أحتم عليك العشر ، وإنما أستأجرك للتسهيل علينا وعليك ، وجرد هذا الرجل الصالح نفسه من الحول والقوة ، فردّ ذلك إلى المولى –عز وجل– الذي بيده الصلاح فقال : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القصص /٢٧) فرغبه

---

(١) انظر : السعدي – تيسير الكريم الرحمن – ص (٦٢٩).

في سهولة العمل ، وفي حسن المعاملة ، وفي هذا دليل وبرهان على أنه ينبغي على الرجل المؤمن الصالح أن يحسَّن خلقه مهما أمكنه ، وأن يسهّل على عباد الله بقدر طاقته .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ **(القصص /٢٨)**

قال موسى – عليه السلام – مجيباً له فيما طلبه منه " قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ " **أي : هذا الشرط الذي ذكرت ، رضيت به ، وقد تم فيما بيني وبينك** " أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ " **سواء قضيت الثماني الواجبة أم تبرعت بالزائد عليها ،** "وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ"

أي : حافظ يراقبنا ، ويعلم ما تعاقدنا عليه ، وأتمّ – عليه السلام – أتمَّ الأجلين و أكملهما ، كما ورد في حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – . (١)

---

(١) انظر : ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – (٣٩٩/٣)

obeikandl.com

(مسألة) هل نبي الله شعيب – عليه السلام – أبو المرأتين ؟

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي – رحمه الله – :

وهذا الرجل أبو المرأتين ، صاحب مدين ليس بشعيب النبي المعروف ، كما اشتهر عند كثير من الناس ، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل ، وغاية ما يكون :

١) أن شعيباً – عليه السلام – قد كانت بلده مدين ، وهذه القضية جرت فى مدين ، فأين الملازمة بين الأمرين ؟

٢) وأيضاً ، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب ، فكيف بشخصه ؟

٣) ولو كان ذلك الرجل شعيباً ، لذكره الله تعالى ، ولَسَمَّتْه المرأتان .

٤) وأيضاً ، فإن شعيباً – عليه السلام – قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه ، ولم يبق إلا من آمن به ، وقد أعاذ الله المؤمنين به ، أن يرضوا لبنتى نبيهم بمنعهما عن الماء ، وصد ماشيتهما حتى يأتهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقى مستقيهما .

٥) وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ، ويكون خادماً له ، وهو أفضل منه ، وأعلى درجة ، إلا أن يقال : هذا قبل نبوة موسى ، فلا منافاة ، وعلى كل حال ، لا يعتمد

على أنه شعيب النبي ، بغير نقل صحيح عند النبي– صلى الله عليه وسلم – . [1]

---

(١) السعدي ـ تيسير الكريم الرحمن– ص (٦٣٠)

obeikandl.com

رابعاً :

البشارة بالرسالة ، وهلاك فرعون .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ **(القصص /٢٩)**

يحتمل أن قضى الأجل الواجب ، أو الزائد عليه ، كما هو الظن بموسى – عليه الصلاة والسلام – ، بيد أن الثابت في السنة يقطع الاحتمال ، ويثبت وقوع أكمل الأجلين ، قال ابن كثير في تفسيره : وقد دلّ الدليل على أن موسى – عليه السلام – إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ، وقال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس – رضي الله عنهما – فسألته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، وإن رسول الله -ﷺ- إذا قال فعل. [1]

فاشتاق – ﷺ – إلى الوصول إلى أهله ، ووالدته وعشيرته ووطنه و وظن من طول المدة أنهم قد تناسوا ما صدر منه ، فسار بأهله قاصداً مصر ، " فآنس " أي : أبصر من جانب الطور ناراً ، فقال عندئذ لأهله : ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ **(القصص /٢٩)**

وكان قد ضلّ الطريق ، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ **(القصص /٢٩)**

وكانت ليلة شديدة البرودة ، فلما أتى النار ﴿نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **(القصص /٣٠)**

---

(١) الإمام ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – (٣٩٩/٣)

وانظر : المراغي – تفسير المراغي – مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى . مصر . ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م . (٢٠ / ٥٤) – وانظر : أبو حيان – البحر المحيط . تحقيق : صدقى محمد جميل . دار الفكر . بيروت . ١٤٢٠ هـ (٨ / ٣٠١) . وانظر : الألوسى – روح المعاني . تحقيق : على عبد البارى عطية . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٤١٥ هـ . (١٠ / ٢٧٩ : ٢٨٠) .

فأخبره بألوهيته وربوبيته ،ولزم من ذلك أن يأمره بعبادته ، كما صرح به في الآية الأخرى في سورة " طه " ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (طه /١٤)

وقوله تعالى : ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (القصص /٣٠) ، أي : الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعّال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه .

وقوله ﴿ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ ﴾ (القصص /٣١) أي : التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله : ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴾ (طه ١٧-١٨) ، والمعنى : أما هذه عصاك التي تعرفها ﴿ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴾ (طه ١٩-٢٠) فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون [1] فكانت رؤية هذه الآية بمثابة التدريب على رؤية الآيات الأكبر منها ، وليربط على قلبه ، حتى إذا ما رآها هكذا أمام عدوه في مقام المناظرات والمراجعات ، يكون أثبت وأقوى بخلاف ما لو لم يرَ.

فلما رآها تهتز ، وتسعى سعياً شديداً ، ولها صورة مُهيلة ، كأنها جان ، وهو ذكر الحيات العظيم ﴿ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ ﴾ أي : لم يرجع لاستيلاء الروع على قلبه ، فقال الله له : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾ (القصص /٣١) ، هذا أبلغ ما يكون في التأمين ، وعدم الخوف ، فإن قوله : "أَقۡبِلۡ" يقتضي الأمر بإقباله ، ويجب عليه الامتثال ، ولكن قد يكون الإقبال ما زال فى زمام الخوف ، فقال : " وَلَا تَخَفۡۖ " أمرٌ له بشيئين ، إقباله وألا يكون في قلبه خوف ، ولكن يبقى احتمال ، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف ، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه ، فلذلك قال:﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾ (القصص /٣١)

فحينئذٍ اندفع المحذور من جميع الوجوه ، فهذه آية ، أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون ليكون على يقين تام ، فيكون أجرأ له ، وأقوى و أصلب ، ثم أراه الآية الأخرى فقال :

﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ ﴾

---

(١) ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – (٤٠١/٣)

(القصص /٣٢) ، فهذه الآية وما قبلها حجتان وبرهانان من ربك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (القصص /٣٢) ، فلا يكفيهم مجرد الإنذار و أمر الرسول إياهم ، بل لابد من الآيات الباهرة إن نفعت [١]

عندئذٍ قال موسى – عليه السلام – معتذراً من ربه وسائلاً المعونة على ما حمله و ذاكراً له الموانع التي فيه ، ليزيل ربه ما يحذره منها ، فقال : ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أي : ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ (القصص /٣٤)

فإنه مع تضافر الأخبار يقوى الحق ، أيضاً فإن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ، فقال تعالى : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي : نعاونك و نقويك ، ثم أزال عنه محذور القتل ، فقال : ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي : تسلطاً وتمكناً من الدعوة بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ ، وذلك بسبب آياتنا ، وما دلت عليه من الحق ثم قال المولى عز وجل : ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (القصص /٣٥)

وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت ، وهو وحده فريد ، وقد رجع إلى بلده ، بعد ما كان شريداً ، فلم تزل الأحوال تتطور والأمور تنتقل ، حتى أنجز الله له موعوده ، ومكّنه من العباد والبلاد.[٢]

---

(١) الشيخ السعدي – تيسير الكريم الرحمن – ص (٦٣٠)

(٢) نفسه – بتصرف يسير – ص (٦٣١:٦٣٠)

obeikandl.com

قولـــه تعـــالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (القصص /٣٦)

وحتى قوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ (القصص /٤٢)

يخبر المولى – عز وجل – عن كفر فرعون وطغيانه ، وأن موسى . عليه السلام . جاءه بالآيات الواضحات على ما قاله لهم ، ليس فيه قصور ولا خفاء ، فقالوا على سبيل الاستعلاء ، ووجه الظلم و العناد :﴿ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ (القصص /٣٦) ، وهذا نفس ما قاله فرعون – قبحه الله – حينما هُزِم وخُصِم ، في تلك الحال التي ظهر فيها الحق ، واستعلى على الباطل ، وخضع له العارفون من السحرة : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الشعراء /٤٩)

فقال موسى – عليه السلام – عندئذٍ : ﴿ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (القصص /٣٧)

أي : إذا لم تفد المقابلة معكم ، وتبيين الآيات البينات ، وأبيتم إلا التمادى في غيكم ، واللَّجاج على كفركم ، فالله تعالى العالم بالمهتدى وغيره ، ومن تكون له عاقبة الدار ، نحن أم أنتم ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

قال الزمخشري : يقول : ربي أعلم منكم بحال من أهّلَه الله للفلاح الأعظم ، حيث جعله نبياً ، وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبي ، يعني نفسه ، ولو كان ما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ، ولا ينبئ الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون [1]

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (القصص /٣٨)

---

(١) انظر : الزمخشري – الكشاف – دار الكتاب العربى . بيروت . ط٣ : ١٤٠٧ هـ (٣ / ٤١١) – وانظر : النسفي – تفسير النسفي – تحقيق : يوسف على بديوى . دار الكلم الطيب . بيروت . ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م (٢ / ٦٤٣) .

ثم إن فرعون قال متجرئاً على ربه ، ومُمَوِّهاً على قومه السفهاء ، فقال : أنا وحدي إلهكم ومعبودكم ، ولو كان ثَمَّ إله غيري لعلمته ، فما أقبح هذا الورع الكاذب ، فهو لم يقل : ما لكم من إله غيري ، بل تورع هذا الكذاب فقال : " ما عملت لكم من إله غيري " **، فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثَمَّ إلهاً غيره ، أراد أن يحقق النفي الذي جعله بلفظ العلم أولاً ، فقال لهامان :** ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ **(القصص /٣٨)**

فكانت كل هذه الأفعال والأقوال من فرعون ترويجاً لكذبه وتسلطه على الناس بالباطل ، بيد أن العجب من هؤلاء الأكابر في مملكته ، المدبرين لشئونها ، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم واستخف أحلامهم ؟! ، ولكن القرآن الكريم يجيب عن هذا بأنه الفسق الذي يجعل العقول كالحجارة الجامدة ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ **(الزخرف /٥٤)**

قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ **(القصص /٣٩)**

أي : استكبروا على عباد الله ، وساموهم سوء العذاب ، واستكبروا على رسل الله ، وما جاءوهم به من الآيات ، فكذبوها ، وزعموا أن ما هم عليه أعلى و أفضل ، وظنوا أنهم لن يرجعوا إلى الله رب العالمين يوماً من الأيام ، فكانت عاقبتهم الوخيمة أن أخذهم الله جميعاً فأغرقهم في اليم ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ **(القصص /٤٠)**

أي : عندما استمر عنادهم وبغيهم ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ **(القصص /٤١) ، أى : فهم لا ينصرون من عذاب الله ، فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم ، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير .**

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ **(القصص /٤٢)**

أي وأتبعناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنة ، يلعنون ولهم عند الخلق الثناء القبيح ، ويوم القيامة هم من المبعدين من الرحمة ، المستقذِرين لأفعالهم ، الذين اجتمع عليهم مقت الله ، ومقت خلقه ، ومقت أنفسهم[١]

قال الإمام النسفى : " وجعلناهم أئمة " قادة " يدعون إلى النار " أي : عمل أهل النار.

قال ابن عطاء : نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق فهم في ظلمات نفوسهم لا يُدَلّون على سبيل الرشاد ، وفيه دلالة خلق أفعال العباد " ويوم القيامة لا ينصرون[٢] .

obeikandl.com

---

(١) السعدي – تيسير الكريم الرحمن – بتصرف – ص (٦٣١)

(٢) انظر : النسفى . تفسير النسفى . (٢ / ٦٤٥)

المبحث الثالث :

تذكرة المعاندين بالآيات الباهرة والنعم المحيطة وتحذيرهم مما وقع لأسلافهم

لما قص المولى – عز وجل – على رسوله – صلى الله عليه وسلم – ما قص من الأخبار الغيبية ، نبّه العباد على أن هذا خبر إلهي محض ، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ **(القصص /٤٤) ، أي : ما كنت من الشاهدين على ذلك ، حتى يقال : إنه وصل إليك من هذا الطريق ،** ﴿ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ﴾ **(القصص /٤٥) ، فاندرس العلم ، ونسيت آياته ، فبعثناك في وقت اشتدت فيه الحاجة إليك ، وإلى ما علمناك ، فأوحينا إليك .**

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ **(القصص /٤٥) أي : تعلمهم وتتعلم منهم ، حتى أخبرت بما أخبرت به من شأن موسى في مدين ، فكان خبر موسى أثراً من آثار إرسالنا إياك .**

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ **[القصص/٤٦]**

فالمقصود أن المجريات التي جرت لموسى – عليه السلام – في هذه الأماكن فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا نقص ، ولا تخلو من أحد أمرين :

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها ، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها ، فحينئذٍ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله ، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة ، من الأمور المشتركة ، غير المختصة بالأنبياء ، ولكن هذا قد علم وتُيُقِّن أنه ما كان وما صار ، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك ، فتعين الأمر الثاني :

وهو أن هذا جاءك من قبل الله ووحيه وإرساله ، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ، ورحمة الله بك للعباد ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (١)

وبعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ طرفاً من الحجج النيرات وواضح الدلالات على صحة قوله ﷺ ، شرع في ذكر بعض حجج وسخافات المشركين ، ثم ردّ عليها ، فقال تعالى : ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص/٤٧]

أي : فأرسلناك يا محمد لدفع حجتهم وقطع مقالتهم ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وهو القرآن الكريم الذي أوحيناه إليك ، ﴿قَالُوا۟﴾ مكذبين معترضين بما ليس يعترض به ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ أي : لولا أنزل عليك كتاب من السماء جملة واحدة ، وأما أنه ينزل متفرقاً ، فإنه ليس من عند الله ، ومعلوم أن حجتهم مدحوضة ، فمن كمال القرآن أنه نزل متفرقاً ، ليثبّت الله به فؤاد رسوله ، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره :

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ، وأنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ الآية ، يعنون : والله أعلم – من الآيات الكثيرة مثل : العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع و الثمار مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة و الحجج القاهرة (٢)

وأيضاً فإن قياسهم على كتاب موسى ، قياس قد نقضوه ، فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ، ولم يؤمنوا به ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾

---

(١) السعدي – تيسير الكريم الرحمن . ص (٦٣٢)

(٢) الإمام ابن كثير – تفسير القرآن العظيم – (٤٠٦/٣)

أي القرآن و التوراة ، تعاونا في سحرهما و إضلال الناس ، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان ، وهذا شأن كل كافر ولهذا قال الله تعالى ملزماً لهم بذلك : ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٩ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص/٤٩-٥٠] (١)

ثم تستمر السورة في عرض تفنيد شبهات هؤلاء المعاندين للحق فمن ذلك أنهم قالوا :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القصص /٥٧]

يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ : ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾ بالقتل و الأسر ونهب الأموال ، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم ، ولم يكن لنا بهم طاقة ، وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله – تعالى- ، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق ، فذكرهم الله- تعالى- ما هم غافلون عنه ، وأنه اختصهم بنعمة الأمن دون غيرهم من الناس فقال :﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

أي : أو لم نجعلكم متمكنين ممكنين فى حرم، يكثره المنتابون ويقصده الزائرون، قد احترمه القريب والبعيد، فلا يهاج أهله ولا ينتقصون بقليل ولا كثير، والحال أن كل ما حولهم من الأماكن قد حُفّ بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فكان الواجب عليهم حمدًا لله ربهم على هذا الأمن التام، الذى ليس فيه غيرهم وعلى الرزق الكثير الذى يجىء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما يرتزقون ويتوسعون ، وليتبعوا هذا الرسول الكريم ، ليتم لهم الأمن والرغد، وإياهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً(٢) قال الألوسى: وحاصل الرد أنه لا وجه لخوف

---

(١) السعدي – تيسير الكريم الرحمن – (٦٣٢) بتصرف

(٢) نفسه – (٦٣٥)

من التخطف إن آمنوا ، فإنهم لا يخافون منه وهم عبدة أصنام ، فكيف يخافون إذا آمنوا وضموا حرمة الإيمان إلى حرمة المقام ، ولكن أكثرهم لا يعلمون[1] .

ولهذا توعدهم الله بما فعل بالأمم السابقة قبلهم ، فقال :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ **[القصص/٥٨-٥٩]**

أى : وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها وفخرت بها وألهتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسل، فأهلكهم الله ، وأزال عنهم النعمة، وأحلّ بهم النقمة ﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ [القصص/٥٨] لتوالى الهلاك والتلف عليهم ، وإيحاشها من بعدهم

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ للعباد، نميتهم ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم، ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾

أى: بكفرهم وظلمهم ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا ﴾

أى : فى القرية والمدينة التى إليها يرجعون، ونحوها يترددون ، كل ما حولها ينتجعها ، ولا تخفى عليهم أخبارهم ، فيرسل ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ ﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه ، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل فى القرى البعيدة والأطراف النائية ، فإن ذلك مظنة الجفاء والخفاء، فالله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وبعد ثبوت ظلمه، لذلك قال المولى - عز وجل - : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [2].

---

(١) الألوسى . تفسير الألوسى . (١٠ / ٣٠٤).

(٢) انظر : السعدى . (٦٣٦) بتصرف يسير . وانظر : المراغى . تفسير المراغى . (٢٠ / ٧٧) .

قولـه تعـالى : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾ **[القصص/٦٠] وحتى قولـه تعالى :** ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ **[القصص/٦٦]**

فى هذه الآيات نلاحظ علو جرس التحذير، والحضّ على الزهد فى متاع الدنيا الزائل، وأن الكل مردود إلى الله . عز وجل . : ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ **ويبيّن الله تعالى طرفاً من حالات التبرؤ يوم القيامة الحاصلة بين الأتباع والمتبوعين، وأن الخزى يومئذ والسوء على من اتخذ لله نداً يوالى ويعادى عليه، وأن الكل موقوف بين يدى الله ، لِيُسأل عما أجاب به المرسلين، فأما من ظلم،** ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦﴾ **قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب(١).**

قال القرطبى : أى خفيت عليهم الحجج قاله مجاهد ، لأن الله قد أعذر إليهم فى الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة(٢) .

قال البيضاوى: « فإذا كانت الرسل يتتعتعون فى الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى : فما ظنك بالضلال من أممهم ، وتعدية الفعل بـ (على) لتضمنه معنى الخفاء فهم لا يتساءلون، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والعلم بأنه مثله فى العجز (٣).

فنجد هؤلاء يومئذٍ حيارى، لا يهتدون إلى الصواب، ولكن من رحمة الله بنا جميعاً أنه يعرض على من عصاه التوبة ليتوب عليه، ويطهره من دنس الكفر والعناد، لذلك يستثنى المولى -عز وجل- من هؤلاء، الذين تابوا وآمنوا وعملوا صالحاً ، ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾ **[القصص/٦٧]**

---

(١) ابن كثير . تفسير القرآن العظيم . (٣/ ٤١١) .

(٢) انظر : القرطبى . التفسير . (١٣/٢٤٣) .

(٣) انظر : البيضاوى . تفسير البيضاوى . (٤ / ١٨٣).

obeikandl.com

قولـــه تعـــالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ **[القصص/٧١]**

إلـــى قولـــه تعـــالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ **[القصص/٧٣] قال الزمخشرى : والسرمد: الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم: ثلاثة سَرْدٌ ، وواحد فَرْدٌ، والميم زائدة [١] فهذا امتنان من الله ـ عز وجل ـ على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل الله وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم فى ضيائه، والليل ليهدأوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف فى النهار، فهذا فضله ورحمته بعباده، فهل أحد يقدر على شىء من ذلك ؟**

فلـو جعل ﴿ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ **مواقع العبر ، ومواضع الآيات فتستنير بصائركم وتسلكوا الطريق قال ابن عاشور: وعبرّ بالضياء، دون النهار لأن ظلمة الليل قد تَخِفُّ قليلاً بنور القمر ، فكان ذكر الضياء إيحاءً إلى ذلك [٢].**

وفى هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغى له أن يتدبر نعم الله عليه، ويستبصر فيها ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها ، وحالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف من جرى من العوائد، ورأى أن هذا الأمر لم يزل مستمراً ولا يزال، وعمى قلبه عن الثناء على الله [٣].

---

(١) انظر : الزمخشرى ـ الكشاف ـ (٣ / ٤٢٨) .

(٢) انظر: ابن عاشور ـ التحرير والتنوير ـ (٢٠ / ١٧٠) .

(٣) السعدى ـ تيسير الكريم الرحمن – (٦٣٨) .

المبحث الرابع : العبرة وهلاك قارون

قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ **[القصص/٧٦] وحتى قوله تعالى :** ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ **[القصص/٨١-٨٣]**

يخبر تعالى عن حالة قارون، وما فعل، وما فُعِل به ونُصح ووُعظ فقال : ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ ﴾ **[القصص/٧٦] ، أى : من بنى إسرائيل الذين فُضِّلوا على العالمين، وفاقوهم فى زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا انحرف عن سبيل قومه:** ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ **وطغى بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية،** ﴿ ۞ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ﴾ **[القصص/٧٦] ، أى : من كنوز الأموال شيئاً كثيراً ، والعصبة: من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذلك** [١] **قال أبو السعود: والعُصبة والعُصابة : الجماعة الكثيرة** [٢] **، قال الرازى: والعُصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها ، فالعشرة عُصبة بدليل قوله تعالى فى إخوة يوسف – عليه السلام – : « ونحن عصبة» وكانوا عشرة ، لأن يوسف وأخاه ولم يكونا معهم** [٣] **، حتى إن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح ، فما ظنك بالخزائن؟! ، إذ قال له قومه : ناصحين له محذرين عن الطغيان** ﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ **أى : لا تفرح فرح**

---

(١) انظر : السعدى . تيسير الكريم الرحمن . ص (٦٣٩) .

(٢) أبو السعود . إرشاد العقل السليم . ص (٧ / ٢٤) .

(٣) الرازى . مفاتيح الغيب . ص (٢٥ / ١٤).

البطرين الأشرين، ولا تلهينّك الدنيا عن الآخرة ، فإن الله لا يحب الفرحين بها ، المكبين على محبتها .

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [القصص/٧٧] أى : قد حصل عندك من وسائل الآخرة، ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله من الصدقة، ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات.

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى : لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، « وأحسن » إلى عباد الله ﴿ كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ بهذه الأموال : ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بالتكبر، والعمل بمعاصى الله ، والاشتغال بالنعم عن المنعم ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قال : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص/٧٨] فقال ردًّا لنصيحتهم ، كافراً بنعمه ، عازيًا ذلك إلى معرفته وحذقه، فلما قال ما قاله لم يكن ثَمَّ مانعٌ من إهلاكه، مع مضى عادة الله تعالى وسنته بإهلاك من هو مثله، وأعظم منه إذا فعل ما يوجب الهلاك، فقال الله . تعالى . بعدها ، وبعد أن ذكّر بسنته وعادته فى إهلاك المعاندين قبله : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ [القصص/٧٩] ، فكانت هذه بداية النهاية لهذا الطاغية، فخرج ذات يوم على قومه فى حالة هى أرفع ما يكون من البهاء والمخيلة، وتلك الزينة فى العادة من مثله تكون هائلة، قد جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وفخرها، فرمقته العيون، وملأت بِزَّتُه القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين ، كلٌّ تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى : الذين تعلقت إرادتهم فيها ، وصارت منتهى رغبتهم ، ليس لهم إرادة فى سواها، ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ من الدنيا ومتاعها ، وغضارتها وزهرتها، ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ وصدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أى : الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر هؤلاء إلى ظاهرها ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين

لمقالهم ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجل من لذة العبادة، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه ، والآجل من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

قوله تعالى : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ **[القصص/٨١] فخسف الله به وبداره الأرض جزاءً من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله ، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره ، وأثاثه ومتاعه، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ ، أى : جاءه العذاب فما نُصِرَ، وما انتصر.**

قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص/٨٢]

أصبح الذين كانوا يريدون الحياة الدنيا،الذين قالوا قبل ذلك :﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ ، يقولون اليوم متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم : ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ ولولا فضله ومّنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ ، فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه ندموا وتغير فكرهم الأول فقالوا فى الأخير : ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [1] وذكر أبو حيان خمسة أقوال فى معنى ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ فقيل: أصلها ويلك ، وقيل : معناها أعجب ، وقيل : هى كلمة تَحَزُّن، وقيل حرف واحد بجملته بمعنى (ألم تر) ، وقيل :رحمةً لك[2] ، ثم يأتى التعقيب من قبل المولى - عز وجل - على قصة هلاك قارون ، بقوله : ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص/٨٣-٨٤] .

---

(١) السعدى- تفسير السعدى - (٦٣٩ . ٦٤٠) بتصرف .

(٢) انظر :أبو حيان . البحر المحيط . (٨ / ٣٢٩) باختصار .

المبحث الخامس : العاقبة

فكما افتتحت السورة بالبشارة بالنصر والتمكين للمؤمنين فى الدنيا قبل الآخرة، ختمت بنفس هذه البشارة، فليس يليق بحكمة الملك ـ عز وجل ـ أن تكون الحياة دنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، فلزم من ذلك وجود الآخرة والمعاد، ليجازى فيه المحسنون بإحسانهم ، والمسيئون بإساءتهم، ولم يبقَ للجدال فى هذه المسألة محل ، لا أثراً ونقلاً ، ولا نظراً وعقلاً وقد ذكر الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى تفسيره عدة أقوال فى تفسير قوله تعالى :

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ، تؤكد كلها من قريب أو بعيد على البشارة بانتصار النبي – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين عاجلاً وآجلاً، فى الدنيا والآخرة فقال ـ رحمه الله ـ : ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ... وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضى الله عنهما – ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وفى بعضهما : لرادك إلى معدنك من الجنة ... وقد روى عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى حدثنا سفيان العصفريُّ عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ قال إلى مكة [1].

قال الإمام القرطبى ـ رحمه الله ـ فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ ختم السورة ببشارة نبيه محمد ـ ﷺ ـ بردّه إلى مكة قاهراً لأعدائه، وقيل : هو بشارة له بالجنة ، والأول أكثر ، وهو قول جابر بن عبد الله ، وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ ومجاهد وغيرهم ، قال القتبى : معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف ثم يعود [2].

---

(١) ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ (٣/ ٤١٦ ـ ٤١٧) .

(٢) القرطبى ـ الجامع لأحكام القرآن ـ (١٣ /٢٥٦ ـ ٢٥٧) .